مجلة الجامعة القاسمية

للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية

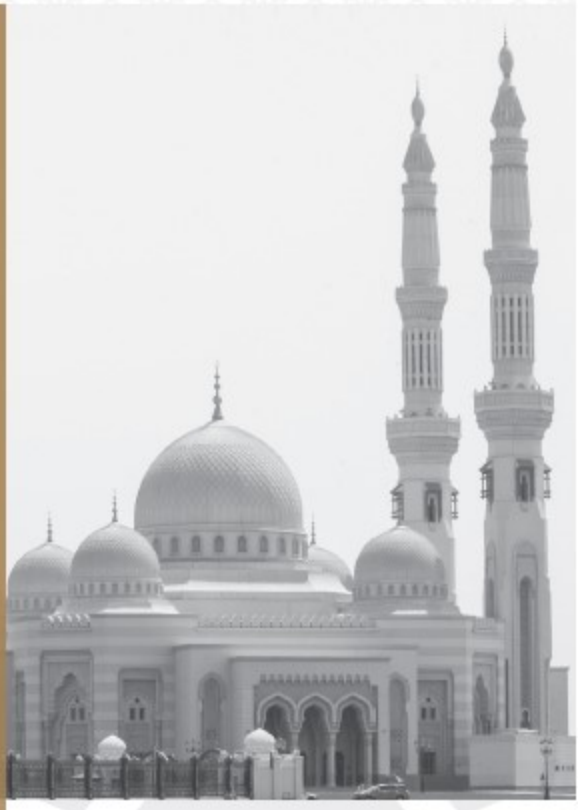

مجلة علمية محكمة نصف سنوية

المجلد: 5، العدد: 2

جمادى الآخرة 1447 هـ / ديسمبر 2025م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات: 2788-5526

AQU Journal of Shari'a Sciences and Islamic Studies, Vol. 5 No. 2, pp. 321-350 (Dec.2025)
DOI:10.52747/aqujssis.5.2.450
E-ISSN 2788-5534 / ISSN 2788-5526

لغة العيون ودلالاتها النفسيّة في تصوير القرآن لمشاهد من السيرة النبويّة

THE LANGUAGE OF THE EYES AND ITS PSYCHOLOGICAL IMPLICATIONS IN THE QUR'ANIC DEPICTION OF SCENES FROM THE PROPHETIC BIOGRAPHY[1]

محمد عواد الخوالدة

الجامعة القاسمية، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

Mohamed Awwad Al-Khawaldeh

Al Qasimia University, Sharjah, UAE

(1) Article received:June 2025; article accepted: August 2024

ملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على لغة العيون وانفعالاتها النفسية في مشاهد من السنة النبوية والقرآن الكريم، محاولةً الكشف عن الدلالات الدقيقة والمعاني العميقة للانعكاسات النفسية للغة العيون بأسلوب إعجازي قرآني فريد، وبيان مدى تأثيرها على العلاقات المجتمعية والسلوكيات الإنسانية. وتستند الدراسة إلى المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يعتمد على جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع وتحليلها من خلال كتب التفسير، إلى جانب المنهج المقارن الذي يقارن بين الدراسات والنظريات النفسية الحديثة وما ذكرته الآيات الكريمات، لاستخلاص أبرز المشتركات التي تظهر أسبقية القرآن الكريم في هذا المجال. وقد توصلت الدراسة إلى الكشف عن الدلالات الدقيقة والمعاني العميقة للانعكاسات النفسية للغة العيون بأسلوب إعجازي فريد، حيث تجسّد القرآن الكريم ذلك من خلال مشاهد السنة النبوية، موضحةً الآثار النفسية الإيجابية كما ظهرت على النبي ﷺ، والآثار السلبية كما ظهرت على مواقف المنافقين، كما تناولت أثر النعاس الذي ألقاه الله على الصحابة في بدر وأحد، وما كان له من أثر نفسي على النشاط العصبي السمباثوي الذي يقلل الضغط على الجسم في الأزمات والكوارث والحروب، بالإضافة إلى بيان خطر النفسية المخادعة التي تبدو نظراتها كنظرات المغشي عليه من الموت وما يعتريها من توترات تؤدي إلى الهلع والرهاب النفسي المعروف بالبانتوفوبيا.

Abstract:

This study aims to shed light on the language of the eyes and its associated psychological emotions in scenes from the Prophetic Sunnah and the Holy Qur'an, seeking to reveal the subtle indications and profound meanings of these psychological reflections in a unique Qur'anic miraculous style, while demonstrating the impact of the language of the eyes on social relationships and human behavior. Employing an inductive analytical approach, the study collects relevant Qur'anic verses and examines them through classical tafsir literature, while also

using a comparative method to align modern psychological studies and theories with what is mentioned in the noble verses, highlighting the precedence of the Holy Qur'an in these matters. The findings reveal nuanced indications and deep meanings of the psychological reflections of the language of the eyes, illustrated through the Prophetic Sunnah, where positive psychological effects are embodied in the behaviors of the Prophet Muhammad (peace be upon him) and negative effects are observed in the actions of the hypocrites. The study further examines the impact of drowsiness that Allah cast upon the companions during the battles of Badr and Uhud, which affected the sympathetic nervous system and helped reduce stress during crises, disasters, and wars, as well as the dangers of deceptive psychology, characterized by expressions akin to a person on the verge of death and the resulting tensions that may lead to panic and anxiety, known as pantophobia.

الكلمات المفتاحية: لغة العيون، الدلالات النفسية، الإعجاز النفسي.

Keywords: Language of the eyes, psychological reflections, psychological miracles.

المقدّمة:

تحدّث القرآن الكريم عن لغة العيون وانفعالاتها النفسيّة في مشاهد دلّت عليها السيرة النبوية، وما ينطوي عليه من دلالات ذات أهميّة، وذلك بتتبع ما تحمله لغة العيون من تعبيرات لا يمكن أن يؤديها الكلام المنطوق، لمحاولة الكشف عن الدلالات الدقيقة والمعاني العميقة للانعكاسات النفسيّة للغة العيون بأسلوب إعجازي فريد، وقد جعلتها في مبحثين وستة مطالب: الأول: لغة العيون ماهيتها ومدلولاتها، والثاني: لغة العيون في القرآن الكريم، والثالث: الإرشادات الإلهيّة بلغة العيون لرغبة النبي عن الدنيا. والرابع: في بيان سيميائيّة النّعاس وأثرها على الصحابة في بدرٍ وأحد، والخامس: ثنائيّة لغة العيون في غزوة الأحزاب وانفعالاتها النفسيّة، والسادس: في بيان لغة عيون المنافقين مع النبي وآثارها النفسيّة.

كان اختيار مشاهد من السنّة النبوية في القرآن الكريم مجالا للدراسة؛ لتنوّع دلالات لغة العيون فيها، وما فاض عليها من الاهتمام والاحتفاء رغم وجود أمثلة زاخرة في كتاب الله عز وجلّ تناولت لغة العيون، وكان من النتائج التي انتهيت إليها في البحث أن القرآن الكريم جسّد لنا بلغة العيون الآثار النفسيّة إيجاباً –كما عند النبي والصحابة– وسلباً– كما عند المنافقين– من خلال الإيماءات والحركات البصريّة والمشاعر والأحاسيس التي تكشف مكنونات النّفس.

إشكالية الدراسة:

تتناول الدراسة لغة العيون في مشاهد من السيرة النبوية في نصوص القرآن الكريم وبيان الانعكاسات النفسية التي صوّرتها الآيات وعلاقة ذلك بالدراسات النفسيّة الحديثة، وتتمحور حول سؤال رئيس: ما أبرز الانعكاسات النفسيّة التي لها علاقة بالدراسات الحديثة وذكرها القرآن الكريم؟

وبجانب هذا السؤال يتفرع عنه ما يأتي:

1. ما المقصود بلغة العيون، وما مكانتها في مكنونات النفس البشريّة؟

2. ما أبرز المشاهد من نصوص القرآن المتعلّقة بجانب السيرة النبوية التي تناولت لغة العيون بالدراسة؟
3. ما العلاقة بين ما توصلت إليه الدراسات النفسيّة الحديثة وما ذكرته النصوص القرآنية؟

الدراسات السابقة

حقيقة لا أزعم أنني صاحب الريادة في سبر هذا الميدان، والسبق إلى آثار الاهتمام به، حيث إن دراسات سابقة تفاوتت حظوظها جودة وتنسيقاً، نعدّ منها:

1. دراسات تتعلّق بلغة العيون في الشعر العربي كدراسة شماس، لغة العيون عند الشعراء، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون،1996، ودراسة الدهون، لغة العيون عند شعراء العباسيين، الجوبة، عدد 62، تاريخ 2019م.

وكلا الدراستين ركزتا على بيان ما تناوله الشعراء من ذكر للعيون ووصف ذلك، وهي دراسات بعيدة الى حدّ كبير عن موضوع دراستنا ومضمونها.

2. دراسات تتعلّق بلغة العيون في القرآن الكريم، منها ما كان على العموم مع ذكر نماذج مختارة، كدراسة دلالات لغة العيون في القرآن الكريم، الباحث شهاب الدين محمد نبيل قسم الدراسات الاسلامية، كلية الآداب، جامعة وادي النيل مجلّة التميز للعلوم المجتمعيّة والإنسانية، مجلد 5، العدد2024م، وهذه الدراسة تختلف في أنها مختصة بنماذج السيرة النبوية الموجودة في القرآن الكريم، متناولة الجانب النفسي والتفسيري والعلاجي وربطها بما توصل إليه العلم الحديث، وهذا ما لم يكن في تلك الدراسة، ودراسة رشيد، أحمد، حركات العيون ودلالاتها النفسيّة في القرآن الكريم، مجلة كلية العلوم العدد 44، 2015م، وهي دراسة جيدة من الناحية التفسيرية وذكر أقوال المفسرين، ولكنها أغفلت إلى حد كبير الجانب النفسي من خلال كتب علماء النفس وأساليب العلم الحديث في تفسير

تلك الانفعالات، وهو ما كان في دراستي إلى جانب أنني أردت أن تكون دراستي مركزة على جانب دقيق حتى لا تكون دراسة عامة جمعت ثلاثة مسالك؛ مسلك التفسير الخاص بآيات السيرة النبوية المتعلّقة بلغة العيون في القرآن الكريم، ومسلك الانعكاسات النفسيّة المترتبة على ذلك، ومسلك ما ذكره علماء النفس المعاصرين من دراسات تتعلق بذلك الجانب ولها اتصال وثيق بالآيات القرآنية.

أهميّة الدراسة:

شكّلت لغة العيون الحيّز الأكبر في بيان الانفعالات النفسيّة ومدلولاتها، والقرآن الكريم ذكر جانبا مهمّا في تصوير تلك الانفعالات، ولا شكّ أن كثيرا من الدراسات المعاصرة اهتمت بلغة العيون، وأصبح علماء النّفس يستخدمون تلك اللغة كأداة مهمّة يتم معرفة المشاعر من خلالها، والوصول إلى أفكار الآخرين بشكل سريع، لذلك تتبعت هذه الدراسة بعض النصوص في القرآن الكريم وركزت على جانب السنّة النبوية لرصد مدى ذكر القرآن لتلك اللغة، وبيان جماليته في التصوير النفسي لها.

أهداف الدراسة

- بيان مصطلح لغة العيون واستخداماتها في سياقات متنوعة في القرآن الكريم.
- تسليط الضوء على أبرز الانعكاسات النفسية التي صوّرتها لغة العيون في مشاهد من السنّة النبويّة ذكرتها النّصوص القرآنية.
- معرفة مقدار تأثير لغة العيون على السلوكيّات النفسيّة والانفعالية لأصحابها.

التمهيد

من المعلوم أنّ لغة الجسد لغة غير محكيّة ومدلولاتها عميقة ودقيقة، فهي تحمل في طياتها من الأسرار ما يجعلنا من الصعب أن نكشف عن مكنوناتها، غير أنّ ذلك لا يعد مستحيلا، "وطبقًا لدراسات ذكرها Allan and Barbara peas في كتابيهما " The Definitive Book of Body language؛ فإن 7% من التواصل البشري يقتصر فقط على الكلمات، بينما 55% منه معتمد على لغة الجسد وما تضمه من حركات وإيحاءات، و38% على نبرة الصوت والوقفات المستخدمة؛ لذلك عندما نتحدث عن أهم اللغات التي يجب أن يتعلمها المرء، فنحن لا نتحدث عن اللغات القديمة أو الحية، بل نتحدث عن اللغة المسؤولة بشكل أكبر على التواصل البشري الفعال وهي لغة الجسد"[1].

فلا عجب إذن أن نجد اهتمام القرآن الكريم بهذه اللغة، والتي تناولها في كثير من نصوصه بأسلوب تربوي نفسيّ بليغ، وذلك من خلال تصوير الانفعالات الصادرة عن أصحابها وبيان مكنوناتها والتحذير مما يصدر عنها من شرور وأحقاد.

واختار الباحث الحديث عن مشاهد نقلها لنا القرآن الكريم تتعلق بشيء من السيرة النبوية، كعزوف نظرات النبي ﷺ عن الدنيا، وما شهدته عيون الصحابة خاصة في غزوة بدر وأحد والأحزاب، وشرور أنظار المنافقين التي تكاد تنال من المؤمنين كلّما أصابهم خير، فتزداد غلّا وحقدا وحسدا مرّة، وفرحا وازدراء مرة أخرى، ولما كانت لغة العين هي صاحبة الحيّز الأكبر في تعبيرات لغة الجسد، جاء البحث بعنوان "لغة العيون ودلالاتها النفسيّة في القرآن الكريم، آيات من السيرة النبوية أنموذجا".

(1) Allan, The Definitive Book of Body language. p 210.

المبحث الأول: لغة العيون وأهميتها في تحليل الشخصيّة.

المطلب الأول: لغة العيون ماهيتها ودلالاتها.

تعدّ لغة العيون جزءا مهمّا من لغة الجسد بشكل عام، والعيون جمع عين: "وتجمع أعيان وأعين وأعينات، الأخيرة جمع الجمع، والكثير عيون والعين الناظرة لكل ذي بصر والعين: المال العتيد الحاضر، ورجل أعين واسع العينين، وعين الشيء نفسه يقال: خذ دراهمك بأعيانها ولا يقال: فيها أعين ولا عيون، وعين المتاع: خياره وأعيان القوم: أشرافهم إما لأنه لا ينظر إلا إليهم أو لأنه كأنهم عيونهم المبصرة"(1).

ويمكن القول: أنّ لغة العيون تعبير مجازي يقصد به الإيماءات التي تصدر عن العين، وتتجاوز الكلمات المنطوقة لتعبّر عن الأحاسيس والمشاعر المكنونة في النفس البشرية، والتي ربّما عبارات وجمل لا تؤدي ما تؤديه تلك الأحاسيس المنبثقة عن لغة العيون.

ويركز عالم النفس جون أموديو على الأحاسيس التي تجلبها تعبيرات العيون؛ فيقول: "كثيرٌ منا يرغب في أن يكون مفهوما ومقدرا وفاعلا، لكن هل يستطيع كثيرون الوصول إلى هذه الأمور بالفعل، يحدث هذا أحيانا لكن في معظم الأحيان لا يتحقق، تعبيرات عيوننا تجلب لنا الفرحة، لكنها أيضا يمكن أن تكون سببا في شعورنا بالخوف أو الحزن".(2)

ومن خلال لغة العيون يمكن الحكم على الآخرين وبتقديري أن هذا الحكم يكون نسبيّا غير مطلق يحتمل الصواب والخطأ، وهذا ما جعل الفيلسوف الفرنسي جان بول يتساءل حول قدرتنا على أن نلاحظ التعبيرات الإيجابية عند معاينة الآخرين قبل الحكم عليهم يقول: "عندما ينظر الناس إليك، ماذا يحدث في داخلك؟ كيف تشعر؟ هل تتمكن من التواصل مع الآخرين من خلال نظرة العين أم لا تتمكن من ذلك؟ إنها بالنسبة للبشر

---

(1) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، " العين "، تحقيق: مهدي المخزومي. الطبعة: الخامسة، 2:254؛ وانظر: الفيومي، أحمد، "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير". دار الكتب العلمية. بيروت،2:440.

(2) https://psychologia.co/eye-reading-in-body-language/#google_vignette

أمور محيرة وربما مخيفة أو كلاهما معا؟ عندما تنظر في عيني شخص آخر، هل تستطيع ملاحظة حكمه على شخصيتك؟ هل تميل إلى وضع الناس في مكان محدد من حياتك أم تترك لهم الفرصة للتعمق أكثر في حياتك وخصوصياتك، ربما إذا مارسنا متابعة الناس والحكم على شخصياتهم بطريقة أكثر انفتاحا وباستخدام أعيننا التي لا تركز على السلبيات فقط، فإننا قد نحدث معهم تواصلا أكبر ويكون لدينا المزيد من العلاقات والأصدقاء التي ربما تستمر لفترات أطول من المعتاد ، اتصال العين، مصاحبة مع الاتصال الحسي المادي يمكن أن يصبح نوعا من الممارسة الذهنية، ويمكن أن نلاحظ تحركات المعدة أو خفقات القلب ونحن نحدق في عين الشخص، خاصة لو كان من المقربين إلينا، تلك الأمور تكون أكثر وضوحا في ملاحظة حركات من نحبهم[1].

"وتعدّ العين أقوى لغات الجسد على الإطلاق، ذلك أنها أكثر الحواس التي تعكس ما يدور في العقل، وذكر علماء النفس تفسيرات لكل حركة من حركات العين " فمثلا إذا اتسعت بؤرة العين للشخص فإن ذلك دليل على أنه سمع منك شيئًا أسعده، أو أثار دهشته إعجابا أو خوفا ، وإذا نظر إلى أسفل ثم رفع نظره إليك دل على الخجل والتواضع، وإن ما تقوله أكثر مما يستحقه وإنه ممتن لك، وإذا كان المتكلم يحاول ألا تلتقي عيناه مع عيني الذي يتحدث معه فهذا معناه الشك وعدم الثقة والخوف ممن يتحدث معه، وعندما تثبت العينان تماما في مكانهما دلت على الانتباه الشديد لما يقال، وأن ما يقال يمس حياتك أو حياة محدثك مسا مباشراً، وأمّا نظرة المراوغة تكون بصعوبة النظر إلى عيون الآخرين ويفضلون النظر إلى أقدامهم أو التحديق في أي شيء آخر حتى يتفادوا الالتقاء بعيون محدثهم، وعادة ما يكون هؤلاء من المراوغين أو الذين يتمتعون بالخجل الفطري، وهؤلاء يسببون لأنفسهم ولغيرهم مشاكل لا تحصى بسبب هذا الخجل، والنظرة الغاضبة

(1) جان باول، "فن التواصل أنا وانت والذات الحقيقية"، دار المشرق. بيروت. ط3، ص25.

القوية تنعكس عادة ظاهرة الغضب في العينين تؤكدها حركة غير شعورية من الفم بإطباقه شديدة على الفك والشفتين، وهي نظرة تتسم عادة بالسخط والكراهية[1]".

وأيا كانت تلك التفسيرات للغة العيون فإنّه لا يمكن القطع بها، فهي نسبية تحتمل أكثر من تفسير، فخفض العينين إلى الأسفل الذي يفسره علماء النفس بالخجل، يمكن ردّه بأن الابن عندما يخفض عينيه لوالديه إنما هو دليل الاحترام والتقدير مثلاً.

المطلب الثاني: لغة العيون في القرآن الكريم

قبل بدء الحديث عن لغة العيون في أحداثٍ من السيرة النبويّة في القرآن الكريم، تجدر الإشارة إلى أن مواضيع القرآن الكريم زاخرة بالتعامل مع لغة الجسد بشكل عام ولغة العيون بشكل خاص، ذلك أن لغة العيون —كما ذكرنا– هي أهم لغات الجسد على الإطلاق.

ففي القصص القرآني نلحظ أنّ لغة العيون حاضرة بشكل كبير، فهذه امرأة العزيز تستخدم لغة العيون في مشاهد متعدّدة، فاستهجان النساء لها لمراودتها يوسف، استطاعت أن تقلب هذا الاستهجان عليهنّ فقط من خلال النظرات لجمال يوسف، فأعتدت لهن متكئا، وانبهرت عيونهن بخروج يوسف عليهن؛ فأكبرنه فما عادت بعد ذلك تتحدث النساء عنها مطلقا، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31].

أكبرنه: "أي: أعظمنه ودهشن عند رؤيته، واتفق كثيرون على أنهنّ إنما أكبرنه بمحبتهنّ الجمال الفائق، والحسن الكامل[2]" فكانت الدهشة والانبهار من غير تلفظ بذلك شاهدة في لغة عيونهن، فقطعن أيديهن دهشة وانبهارا وانشغالا بذلك الجمال، ويستبعد الباحث

(1) https://majed2011.blogspot.com/2015/02/blog-post.html

(2) الشربيني، الخطيب." السراج المنير." تحقيق: محمد قاسم. دار الكتب العلمية، 2:105.

معنى أكبرنه أي: أصابهن الحيض، وهو ما أنكره الزجّاج، وذهب إلى ذلك كثير من المفسّرين[1]"، فلما رأينه أكبرنه، أعظمنه، قال أبو العالية: هالهن أمره وبهتن. وقيل: أكبرنه أي: حضن لأجله من جماله ولا يصح[2]".

وفي السورة نفسها حديث العيون ما زال حاضرا هذه المرة مع يعقوب عليه السلام وقد بلغ الحزن منه مبلغا، كلما ذكر فلذة كبده، مصوّرا لنا القرآن الكريم لغة عينيه؛ يقول تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:84] وأيا كان المقصود من بياض عينيه، هل هو كثرة البكاء أم إصابتهن بالعمى؛ فإنّ التعبير بلغة العين لهو أشد دليل على مقدار الحزن الكامن في صدر يعقوب عليه السلام على فقد يوسف فهو كظيم.

ومن لغة العيون في القرآن الكريم تجد الحديث عن يوم القيامة ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: 8-9] مرتعبة ذليلة " وقوله: (أَبْصَارُهَا خَاشِعَة)؛ لأن المعلوم من حال المضطرب الخائف أن يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ما ينزل به من الأمر العظيم.

والحديث عن لغة العيون في القرآن واللغة غير المسموعة واسع وزاخر، يدلّ على عظم كتاب الله عز وجل، وإعجازه الذي ما يزال باقيا ما دامت السموات والأرض[3]".

وذكر القرآن الكريم العيون - التي عبر عنها بالبصر- كوسيلة من وسائل البحث العلمي التجريبي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36] وكما ذكرنا فإنّ الحديث يطول في ذكر القرآن للغة العيون، واستخدامه للسياقات المتعدّدة ذات المعاني العميقة.

(1) البغوي، الحسين بن مسعود، " معالم التنزيل" إحياء التراث، 2:489.

(2) البغوي، " معالم التنزيل"، المرجع السابق

(3) الرازي، محمد،" مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير" دار المعارف، 31:35.

المبحث الثاني: مشاهد قرآنية من السيرة النبوية في لغة العيون وانعكاساتها النفسيّة

المطلب الأول: الإرشادات الإلهية بلغة العيون في بيان رغبة النبي عن الدنيا.

قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:88]

تأتي هذه الإرشادات الإلهية للنبي ﷺ في خضم ما كان عليه أهل الشرك من أصناف الاغترار بالحياة الدنيا، كجمع الأموال والعمران والذخائر ممّا قد يزيغ لرؤيتها البصر، وبالرغم من عصمة النبي ﷺ غير أنها لا تزيل النهي والتوجيه، ومدّ العين في الآية المقصود بها ميلها ورغبتها يقول أبو السعود:"(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) لا تطمح ببصرك طموح راغب، ولا تدم نظرك (إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ) من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها (أَزْوَٰجا مِّنْهُمْ) أصنافا من الكفرة، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر لا يعبأ به أصلا[1]".

وهذا النهي مع أنه موجه للنبي ﷺ غير أنه يشمل أمته أيضا على ما ذكر كثير من أهل التفسير، وإنما النهي للعيون التي تمتدّ وتظهر لغتها في حنينها إلى مغريات الدنيا وأصنافها، والتي تعلّق بها أهل الباطل، ويفهم من ذلك أنّ مجرد النظر دون إعجاب وتعلّق غير داخل في النهي، فالنهي عن مدّ العيون وليس عن مجرّد نظرها.

والنبي ﷺ امتثل لهذا التوجيه القرآني ليكون قدوة لأمته من بعده، ممّا انعكس إيجابا على نفسيّة الصحابة-رضوان الله عليهم-، يقول عمر في وصف النبي ﷺ ومدى إعراضه عن زخارف الدنيا وعدم تعلّقه بها ومدّ عينيه إليها: "رأيته ﷺ على حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مضبورا، وعند رأسه أهبا معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ فبكيت. فقال: "ما يبكيك؟"

(1) أبو السعود، محمد مصطفى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، دار الكتب العلمية، 5:8.

فقلت: يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه. وأنت رسول الله؟ فقال رسول اللهﷺ: "أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولك الآخرة؟[1]".

وبالرجوع إلى النصّ القرآني يلحظ أنه عدل عن البصر إلى ذكر العين رغم أن البصر هو الذي يمتد وينطلق إلى الرغبات ويتأملها ويعجب بها، غير أن التصوير القرآني جعل العين هي التي تمتد بكليّتها، وتكاد تخرج من مكانها لتلتصق بما أعجبت به، وهذا التصوير يعكس مقدار خطورة الإعجاب والتعلّق بزخارف الدنيا وأموالها وأصنافها المختلفة.

والانعكاسات النفسيّة التي تنبني على التعلّق بمغريات الدنيا وامتداد العين لها يدخلها في مقام التحاسد والتغابن، والآية الكريمة تعبر عن الفهم العميق للنفس البشرية التي تميل دوما للمقارنة والرغبة فيما عند الآخرين، وهذا ما ذكره علماء النفس الحديث حول مسألة نظرية المقارنة الاجتماعية وهي نظرية قعّدها عام 1954م ليون فستنجر(Leon Festinger) والتي تتناول كيفية سعي الأفراد إلى عقد مقارنات بين ما عندهم وما عند الآخرين، مما يؤدي إلى فقدان الثقة بالذات[2]"، وهذه النظرية التي وُضِعت قواعدها حديثا سبق إليها القرآن الكريم قبل قرون عديدة من خلال بيان خطورة التركيز على ما يملكه الآخرون؛ مما ينعكس سلبا على نفسيتهم من حزن وقلق وحسد، وهذا الذي ذكرته الآية يتوافق مع مفاهيم تلك النظرية التي ترى أن المقارنات الاجتماعية تأثيراتها سلبية للغاية، والآية لا تكتفي بالتحذير من هذه المقارنة الاجتماعية، بل تعالج ذلك من خلال الدعوة إلى القناعة وشكر الله على نعمه بدلا من المقارنات التي لا قيمة لها.

ولبيان الأثر النفسي لنظرية المقارنة الاجتماعية، والمتمثّلة بما ذكر القرآن الكريم من خلال نهيه عن مدّ العينين إلى ما متّع الله به الآخرين، "أجريت دراسات علمية على

(1) مسلم، ابو الحسين،"الجامع الصحيح". تحقيق: محمد فؤاد. دار إحياء التراث العربي 2: كتاب الطلاق، باب الإيلاء، رقم الحديث 1105، ج2، ص1104.

(2) Leon Festinger, cognitive dissonance 1990، 56

عينات من الأفراد أظهرت أن الحسد شائع في المجالات التنافسية بين الأقران ووصلت نسبته الى 40%، وأن نحو 50-60% من الناس في المجتمعات المادية غير راضين عما يملكون "[1]

ويمثل الشكل 1 نموذجا تقريبيا من الباحث ينبني على النسب التي أجريت عليها تلك الدراسات العلمية:

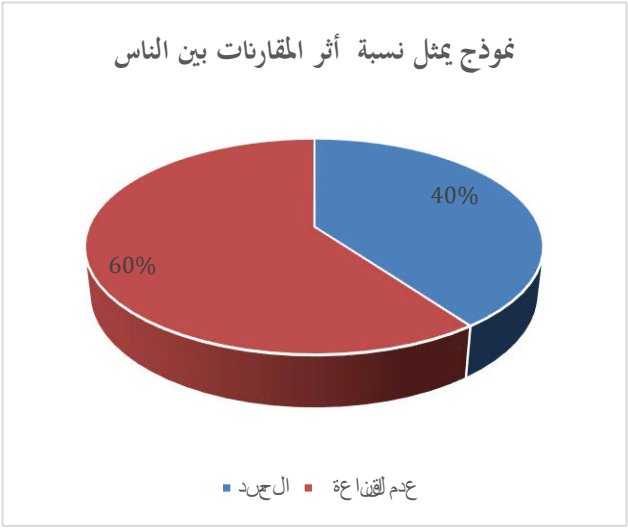

(1) smith, Psychological Bulletin,133,46-64)

المطلب الثاني: سيميائية النعّاس[1] وأثره النفسي على الصحابة في غزوتي: بدر وأحد.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11]، "ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ألقى النعاس على المؤمنين؛ ليجعل قلوبهم آمنة غير خائفة من عدوها؛ لأن الخائف الفزع لا يغشاه النعاس، وظاهر سياق هذه الآية أن هذا النعاس ألقي عليهم يوم بدر؛ لأن الكلام هنا في وقعة بدر، كما لا يخفى. وذكر في سورة آل عمران أن النعاس غشيهم أيضاً يوم أحد، وذلك في قوله تعالى في وقعة أحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154] الآية".[2]

وسبب نزول الآيات في بدر كما هو معلوم:" أن الكفار يوم بدر نزلوا على الماء، ونزل المسلمون على غير ماء، فأجنب بعضهم وأحدثوا، فلم يجدوا ماء يتطهرون به، وكانوا في رمل تسوخ فيه أرجلهم، فوسوس إليهم الشيطان: إنكم تزعمون أنكم على الحق وأولئك على الباطل وإذا هم على الماء، فلو كنتم على الحق لكنتم أنتم على الماء، وما بقيتم مجنبين محدثين، فوقع فيهم خوف شديد، فألقى الله تعالى عليهم النعاس حتى أمنوا، وأنشأ سحابة فتمطرت عليهم حتى سال الوادي وتطهروا واغتسلوا، وتلبدت الرمال حتى ثبتت عليها الأقدام. فهذا معنى قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [3]".

والمشهد ينصب على مسألة النّعاس في الحرب، كيف يكون ذلك؟ وأي نوم يقع لإنسان يرى صليل السيوف من حوله؟ وما أجمل ما علّق به الجصّاص الحنفي على ذلك المشهد بقوله: "فألقى سبحانه عليهم النعاس في الوقت الذي يطير فيه النعاس بإظلال العدو عليهم بالعدة والسلاح وهم أضعافهم[4]".

---

(1) سيميائية النّعاس: يقصد به الإشارات والعلامات الظاهرة والخفية.

(2) الشنقيطي، محمد أمين، (1973م). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر. بيروت،2:409

(3) السمعاني، تفسير السمعاني. تحقيق: ياسر بن غنيم. دار الوطن. ط1، 1997م،251.

(4) الجصاص، أحمد بن علي، "أحكام القرآن" تحقيق: عبد السلام محمد. دار الكتب العلمية،3:61.

وفي قصة أحد قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154]

وكلا الآيتين تذكران النّعاس والأمن في المعركة لكن يفرق بينهما كما ذكر الرازي: "واعلم أن الذين كانوا مع الرسول ﷺ يوم أحد فريقان: أحدهما: الذين كانوا جازمين بأن محمدا ﷺ نبي حق من عند الله، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكانوا قد سمعوا من النبي ﷺ أن الله تعالى ينصر هذا الدين ويظهره على سائر الأديان، فكانوا قاطعين بأن هذه الواقعة لا تؤدي إلى الاستئصال، فلا جرم كانوا آمنين، وبلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس، فإن النوم لا يجيء مع الخوف، فمجيء النوم يدل على زوال الخوف بالكلية، فقال ههنا في قصة أحد في هؤلاء ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ [آل عمران: 154]وقال في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11]ففي قصة أُحد قدّم الأمنة على النعاس، وفي قصة بدر قدّم النعاس على الأمنة، وأما الطائفة الثانية وهم المنافقون الذين كانوا شاكين في نبوته ﷺ وما حضروا إلا لطلب الغنيمة، فهؤلاء اشتد جزعهم وعظم خوفهم، ثم إنه تعالى وصف حال كل واحدة من هاتين الطائفتين، فقال في صفة المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[1]".

ويذكر الشيخ الشعراوي فرقا بين النّعاس الذي أصاب المؤمنين في بدر، والنّعاس الذي أصابهم في أُحد بناء على تقديم النّعاس مرة على الأمنة وتقديم الأمنة على النّعاس في موقع آخر وهو ملحظ دقيق: "﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ ، وهنا النعاس مفعول به، وهو أمنة من الله، كما يقول سبحانه في آية أخرى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154]، ففي آية الأنفال نعاس وأمنة، وفي آية آل عمران أمنة ونعاس؛ وذلك أن النعاس في بدر أصاب جميع جيش المسلمين فقدّمه في الذكر، أما في أحد لم يغش

(1) الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. دار المعارف، 9:393.

النّعاس كل الجيش بل غشي طائفة منهم وهي طائفة الإيمان فتأخّر ذكر النعاس فقال: ﴿أَمَنَة نُّعَاسا ﴾[1]".

ويبدو لي أيضا أن حاجة المسلمين للاستراحة لما أصابهم من تعب وعناء في بدر أكثر من أُحد فغشيهم النّعاس وتقدم ذكره على الأمن.

ولخّص الرازي أبرز فوائد النّعاس على الصحابة في وقت كانوا أحوج ما يكونون فيه إلى الأمن والراحة فذكر منها: "واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد: أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي ﷺ، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانا مع إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله منجز وعده، وثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة، وثالثها: أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم، فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم، ورابعها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى[2]".

والنّعاس الذي أصاب الصحابة هو على الحقيقة وليس كما قيل إنه ليس إلا كناية عن الأمان؛ واللفظ لا ينصرف إلى غير معناه الحقيقي إلا بقرينة. كما هو مقرر عند علماء الأصول.

والنعاس من الناحية النفسيّة يؤثر إيجاباً على الجهاز العصبي وتنشيطه وأبعاده عن الخوف وهو أشد ما يحتاج إليه الإنسان في المواقف الصعبة والكارثية؛ كالحروب والكوارث

(1) الشعراوي، محمد متولي، " تفسير الشعراوي"، مطابع أخبار اليوم،8:4597.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. دار المعارف، 9:45..

التي تلمّ بالمجتمعات ممّا تفقدهم النوم والراحة والاطمئنان، لذلك نجد قوله: (إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ)تدلّ على حالة السكون والهدوء التي شعر بها المؤمنون في وقت الشدّة، والنّعاس هو رمز الهدوء والسكينة التي تزيد الأفراد القدرة على اتخاذ القرارات، والشعور العميق بالثقة في الله، ويذكر صاحب كتاب (Why We Sleep) أنّ النعاس يقلل من النشاط العصبي السيمباثوي- وهو مسؤول عن استجابة الجسم للضغط- ويعمل كذلك النعاس على تعزيز الجهاز العصبي الباراسمباثوي – المسؤول عن الراحة والاسترخاء- وهذا يؤدي إلى التوازن العصبي وتخفيف التعب وتقليل التوتر، فالنوم هو عملية حيوية أساسية لصحتنا العامة ورفاهيتنا، حيث يساعد الجسم في إصلاح نفسه وتجديد الطاقة، مما يعزز صحة الأنسجة والجهاز المناعي. يلعب النوم أيضًا دورًا مهمًا في تعزيز الذاكرة والتعلم من خلال تنظيم المعلومات وتخزينها. بالإضافة إلى ذلك، يساهم النوم الجيد في استقرار المزاج وتقليل التوتر والقلق، ويرتبط بتنظيم الهرمونات والتمثيل الغذائي، حيث إن نقص النوم يزيد من مخاطر الأمراض المزمنة. كما يساعد النوم في تنظيف الدماغ من السموم المتراكمة خلال اليقظة، ويقلل من استهلاك الطاقة، مما يمكّن الجسم من الاستعداد لليوم التالي. باختصار، النوم ضروري للصحة الجسدية والعقلية ويجب أن نمنحه الأولوية في حياتنا[1]".

لذلك جاءت لغة العيون في الآية تقرر مقدار أهمية النّعاس الذي أصاب الصحابة مما يقلل من استهلاك الطاقة وتخفيف التوتر خاصة وهم في مواجهة العدو وتقليل التوتر والقلق.

وفي تخصيص النعاس دون النوم إشارة إلى أن العيون لم تركن بالكليّة؛ لأن النوم العميق يسهل مهمّة العدو في توغلّهم فكان نعاسا يذهب تعبهم دون أن يتعمّقوا به، وهذا ما صورته لنا لغة عيونهم التي وصفها القرآن الكريم بالنعاس دون النوم يقول ابن عاشور: "النعاس: النوم الخفيف أو أول النوم، وهو يزيل التعب ولا يغيب صاحبه، فلذلك كان

(1) walker, A, M, Why We Sleep, 2017, 52

أمنة إذ لو ناموا نوما ثقيلا لأخذوا، قال أبو طلحة الأنصاري، والزبير، وأنس بن مالك: غشينا نعاس حتى إن السيف ليسقط من يد أحدنا، وقد استجدوا بذلك نشاطهم، ونسوا حزنهم؛ لأن الحزن تبتدئ خفته بعد أول نومة تعقبه، كما هو مشاهد في أحزان الموت وغيرها.[1]".

المطلب الثالث: ثنائيّة لغة العيون في غزوة الأحزاب وانفعالاتها النفسيّة

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[الأحزاب: 10-11]

تتحدث الآيات الكريمة عن حالة نفسيّة مرّ بها الصحابة في غزوة الأحزاب، وقد أحيط بهم، وعظم الابتلاء، وركزت الآيات على وصف أبصار المسلمين، وبيان حالة الهلع التي وقعت في قلوبهم، وكأن زلزالا شديدا ضربهم، يقول الإمام الطبري: "وهذه الآية – فيما يزعم أهل التأويل– نزلت يوم الخندق، حين لقي المؤمنون ما لقوا من شدة الجهد، من خوف الأحزاب، وشدة أذى البرد، وضيق العيش الذي كانوا فيه يومئذ، وللمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[2]"، ويرى بعض المفسرين أن الذين زاغت أبصارهم هم المنافقون؛ أي: مالت وهي ترى الأحزاب تتجه نحو المسلمين.

والصحيح عند الباحث أنّ لغة العيون لم تكن محصورة بالمنافقين بل إنّ الخطاب عام للمسلمين كذلك، وذلك أن اللام في الأبصار للعهد، ويمكن القول: إنّ تعريف كلمة الأبصار تدلّ على ثنائيّة لغة العيون بحيث تشمل أبصار المنافقين التي تهللت بجيوش

(1) ابن عاشور، الطاهر محمد، التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، 4:133.

(2) الطبري، محمد بن جرير، "جامع البيان في تأويل القرآن"، تحقيق: أحمد شاكر. مؤسسة الرسالة،4:288.

الأحزاب ظانين أنهم سيقضون على النبي وأتباعه، ولغة عيون الصحابة التي توجّهت نحو العدو موقنة- بالرغم من هلعها- بنصر الله لهم وشتان بين زيغان فيه تربّص بالمؤمنين، وزيغان فيه ابتلاء للمؤمنين.

وفرق أهل اللغة بين (شخصت أبصارهم) و(زاغت أبصارهم)؛ ففي قوله تعالى: "(وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ) معنى زاغت في اللغة: عدلت ومالت، يقال: زاغت الشمس تزيغ زيوغا وزيغانا، قال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، والشخوص غير الزيغ؛ لأن الشخوص هو أن يفتح عينه ينظر إلى الشيء فلا يطرف؛ يقال: شخص بصر الميت. وإنما فسروا الزيغ بالشخوص ههنا؛ لأن المعنى أن الأبصار مالت عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا من كل جانب، كأنها اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه وشخصت بالنظر إلى الأحزاب[1]".

وللسائل أن يسأل لماذا زاغت أبصار الصحابة وهم أهل الثبات؟ والجواب: أن ذلك لا يمنع ثباتهم خاصة إذا علمنا المحطات الكثيرة التي ابتلي بها الصحابة رضوان عليهم في تلك الغزوة، من شدة وضنك وتعب وتكالب وخيانة، فالموقف لم يكن سهلا فتعلّقت عيون الصحابة وقلوبهم، ثمّ لا يخفى على عاقل بشريّة الصحابة التي تدلّ على المشاعر البشرية لما يحاط ويحاك بها، وهذا لا يتعارض البتة مع إيمانهم وثقتهم بربهم، وإنما هي محطّة الابتلاء والتمحيص، فمجرد سماعك عبارة (زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ) تشعر بلغة العيون التي شاهدت العدو متجها إليها، فلم تلتفت لشيء آخر وأصابتها الحيرة، ولشدّة الأمر يتبيّن مقدار الضغط النفسي الذي تعرّض له الصحابة، حتى كأن القلوب بلغت الحناجر وزلزلوا زلزالا شديدا، ومع كل ذلك لم يتزحزح إيمان الصحابة من اليقين بنصر الله.

"ومحور الآية يدور حول الابتلاء بالخوف وشدّته، "فقوله تعالى: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب: 10] كنايةً عن شدة الخوف، وذلك أن الخائف لا يستقرّ له بصرٌ. إشارةً إلى

(1) الواحدي، علي بن أحمد "التفسير البسيط". جامعة الإمام محمد بن سعود،18:186.

ما يداخلهم من الخوف حتى أظلمت أبصارهم. وقيل: إشارةً إلى معنى قولهم: ﴿﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[آل عمران: 13] [1]".

ويمكن القول: إن مقدار الخوف الذي أصاب الصحابة تحول إلى طاقة إيجابية تمثّلت بزيادة يقينهم بنصر الله، وهو ما تحقق لهم في غزوة الخندق بعد أن منّ الله عليهم وفرّ الأحزاب مذعورين مدحورين، وهذا يقرره علماء النفس في حديثهم عن القلق والفزع الذي يصبح طاقة إيجابية، تستهدف تقليل التهديد الذي يتعرض له، ويرى دي بيكر في كتابه" The Gift of FEAR"أن الخوف يمكن أن يستجمع صاحبه قواه ليتحول إلى أداة للحماية والوعي، فالشعور بالخوف غالبا ما يكون نتيجة للحدس الذي ينبهنا إلى الخطر[2]"، وهذا ما حصل مع الصحابة–رضوان الله عليهم– حيث تحول خوفهم إلى أداة للتوجيه واتخاذ القرار وبناء الثقة من خلال القيادة النبوية التي زادتهم ثقة وشعورا بالأمان، ورسوخ إيمانهم بالله عز وجل.

المطلب الرابع: لغة العيون في مواقف المنافقين مع النبي وانعكاساتها النفسيّة.

شبه القرآن الكريم نظرات المنافقين وتقلّبها عندما يطلب النبي ﷺ منهم القتال والدفاع عن المدينة بالنظرات المرتعبة الخائفة التي تشبه نظرات المغشي عليه بسبب الموت.

يقول تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب: 19]

(1) السمعاني، م. (1167م). تفسير السمعاني. تحقيق: ياسر بن غنيم. دار الوطن. ط1، 1997م، 2:157.
(2) Gavin de Becker, the gift of fear,1979,210

ويقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: 20].

والناظر للآيتين الكريمتين يجد لغة العيون حاضرة في نظرات المنافقين كلما ذكر النبي ﷺ لهم القتال؛ تحدثت عيونهم قبل ألسنتهم بنظرات كأنها نظرات الذي يحتضر شاخصة أبصارهم لا يرمش لها جفن، وتحمل هذه العيون الانعكاسات النفسية التي يكتمها المنافقون تجاه خطابات النبي ﷺ لهم، وعندما يقترب الخطر منهم تظهر نفسية الخائف الجبان، وهذه النفسية عبّرت عنها حركة عيونهم، واختيار نظرات الميت زيادة في الإيغال؛ فمجرد نظرات المغشي عليه تكفي لبيان جبنهم وفزعهم، فكيف إذا كانت نظرات المغشي عليه من الموت؟!

ودلت نظراتهم على صفة نفسيّة كامنة تظهر عند المواجهة، فصفة الجُبن المشوب بالخوف والهلع تعدّ مرضا نفسيا يؤدي بصاحبه إلى الهروب من المواجهة.

قال ابن كثير: " ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [محمد: 20] أَيْ: مِنْ فَزَعِهِمْ وَرُعْبِهِمْ وَجُبْنِهِمْ مِنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ[1]"، وهذه النظرات الشاخصة من قبل المنافقين تنصبّ على النبي ﷺ بذهول تام، وهو ما نقله الشوكاني عن ابن قتيبة والزجّاج "يُرِيدُ أَنَّهم يَشْخَصُونَ نَحْوَكَ بِأبْصارِهِمْ ويَنْظُرُونَ إلَيْكَ نَظَرًا شَدِيدًا كَما يَنْظُرُ الشّاخِصُ بَصَرُهُ عِنْدَ المَوْتِ[2]".

ونبّه الألوسي إلى معنى آخر كان سببا في نظراتهم الشاخصة اتجاه النبي ﷺ "وهو غيضهم وحقدهم عند ظهور المؤمنين على الأعداء[3]" وهو معنى بعيد استبعده الألوسي،

(1) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، "تفسير القرآن العظيم."، تحقيق: محمد شمس الدين. دار الكتب العلمية،7:317.

(2) الشوكاني،" نيل الأوطار"، دار العلوم، 5-45

(3) الألوسي، محمود، "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني". تحقيق: علي عطية. دار الكتب العلمية، 13:22.

والباحث يميل إلى ذلك؛ لأن سياق الآية يدل على أنّ ذكر القتال جاء بعده مباشرة بيان حال نظرات المنافقين الدّالة على جبنهم وخوفهم من القتال.

ومن أنفس ما قرأت في بيان النفسية المخادعة كيف تتحول إلى نفسية جبانة مرّة واحدة ما ذكره صاحب نظم الدرر في بيان سنّة الله تعالى، وذلك قوله: "سُنَّةَ اللَّهِ في أنَّ كُلَّ مَن عامَلَ النّاسَ بِالخِداعِ، كانَ قَلِيلَ الثَّباتِ عِنْدَ القِراعِ[1]".

وتتقلب نفسيتهم من خلال بيان الآية لتقلّب لغة جسدهم؛ فمرّة لغة العين التي جمعت الخوف والجبن، فإذا غنم المسلمون غنيمة تبدّلت لغة العين بلغة اللّسان، وهذا التقلّب يشير إلى تقلّب أصيل عندهم، وهو إظهار الخير والإيمان وإضمار الشر والكفر والعصيان.

"قال قتادة: يعني بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسم الغنيمة، يقولون: أعطونا أعطونا، فإنّا قد شهدنا معكم القتال فلستم بأحقّ بالغنيمة منّا، فأمّا عند الغنيمة فأشحّ قوم وأسوأ مقاسمة، وأمّا عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحقّ[2]".

ولما كانت صفة الجبن مذمومة عند مواجهة العدو حذرت السنّة النبوية من هذه الصفة الذميمة قال النبي ﷺ: "شرُّ ما في الرجل شحّ هالع، وجبن خالع[3]"، قال ابن القيّم –رحمه الله تعالى– معلّقا على ذلك: "فإنَّ الشحَّ والجبن أردى صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحُّه هالعًا، أي ملقٍ له في الهلع، وجبنه خالعًا أي: قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة، ولا شجاعة، ولا نفع بماله، ولا ببدنه، كما يقال: لا طعنة ولا جفنة، ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع[4]"

(1) البقاعي، برهان الدين،" نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، دار الكتاب الإسلامي،15:315.

(2) الثعلبي، أحمد محمد،" الكشف والبيان"، دار الكتب العلمية،21:368.

(3) أبو داود، " مسند أبي داوود" تحقيق محمد عبد الحميد، دار الفكر، كتاب الأدب، باب في الشح، ج5، رقم الحديث 4811، ص424

(4) ابن القيم، محمد بن أبي بكر،" تفسير ابن القيم" مؤسسة الرسالة،530.

وبالرجوع إلى الآثار النفسيّة التي تصوّرها لنا الآية الكريمة بنظرات المنافقين وعيونهم تدور كالمغشي عليه من الموت؛ فإن من أهم هذه الآثار الانهيار النفسي الشديد والتوترات الاجتماعيّة على الصحة النفسية للفرد، والانهيار النفسي هو حالة تسيطر على العقل والمشاعر، وتؤدي إلى التوتر والضغوط النفسية والعملية بحيث يعجز عن مواصلة حياته اليومية بشكل طبيعي، ومن أعراض هذا الانهيار الذي أصاب المنافقين الخوف المفرط الذي جعلهم يحسبون كلّ صيحة عليهم، وهذه النوبات من الهلع يسميها علماء النفس بـ(بالبانتوفوبيا) أحد أنواع الرهاب يوصف بالخوف الشديد وواسع النطاق من كل شيء، وتصف كلمة (رهاب البانتوفوبيا) القلق المستمر الذى يصعب السيطرة عليه، والذي يؤدي إلى حدوث كثير من الأعراض، مثل: الخوف أو الرعب المفاجئ والرهاب والقلق الذي يصيب الشخص في الحروب يسمى Anxiety Disorders in War"، يقول ستيفاني كولر المستشار الطبي لدار نشر هارفارد الصحيّة: "يتسلل قلق الحرب استجابة لصدمة تؤثر على العقل والجسد تؤدي بصاحبها إلى نوبات من الهلع الكامل، بحيث تظهر تلك المخاوف على شكل مشاهد تخرج صاحبها عن السيطرة[1]".

وإذا كان هذا المصطلح الحديث يعبّر عن مقدار الخوف والهلع في الحروب فإنّ الإعجاز النفسي في القرآن الكريم ذكر هذه الحالة، وصوّرها لنا تصويرا نفسيّا بديعا، فها هو العلم الحديث يكتشف أثر تلك الصدمة على لغة الجسد، والقرآن الكريم ذكر ذلك قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بنقل صورة لذلك القلق والهلع النفسي الذي أصاب المنافقين عندما ذكر لهم القتال، فأي معنى أجلى من تصوير القرآن للقلق والخوف النفسي، فمجرد ذكر الحرب لهم تجمدّت العروق في عيونهم وكأنهم في غشيان وهذيان.

(1) https://www.health.harvard.edu/blog/war-anxiety-how-to-cope-202205232748 ،y Stephanie Collier, MD, MPH, Contributor; Editorial Advisory Board Member, Harvard Health Publishing

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى أبرز النقاط الآتية:

أولا: الكشف عن الدلالات الدقيقة والمعاني العميقة للانعكاسات النفسيّة للغة العيون بأسلوب إعجازي فريد.

ثانيا: جسّد القرآن الكريم من خلال مشاهد السيرة النبوية الآثار النفسية الإيجابية كما ظهرت على النبي ﷺ والآثار السلبية كما ظهرت على مواقف المنافقين.

ثالثا: أثر النّعاس الذي ألقاه الله على الصحابة في بدر وأحد ممّا كان له أثر نفسي على النشاط العصبي السيمباثوي الذي يقلل الضغط على الجسم عند الأزمات والكوارث والحروب.

رابعا: خطر النفس المخادعة فنظراتها كنظرات المغشي عليه من الموت وما يعتريها من توترات تؤدي إلى الهلع والرهاب النفسي وما يعرف بالبانتوفوبيا.

وتوصي الدراسة بأهمية الكشف عن الإعجاز النفسي في آيات القرآن الكريم، وربط ذلك بالمدلولات النفسية العلمية في العصر الحديث.

المصادر

الألوسي، شهاب الدين محمود، "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني"، تحقيق: علي عطية، (دار الكتب العلمية).

البغوي، حسين بن مسعود، "معالم التنزيل"، تحقيق: محمد عبد العزيز، (طبعة: إحياء التراث).

البقاعي، إبراهيم ابن عمر،" نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، تحقيق: عبد الرزاق غالب، (دار الكتاب الإسلامي، ط2).

الثعلبي، أحمد ابن محمد، "الكشف والبيان عن تفسير القران"، (طبعة: دار الكتب العلمية).

الجصاص، أحمد بن علي، " أحكام القرآن"، تحقيق: عبد السلام محمد، (دار الكتب العلمية، ط1، 1994).

ابن حبان، محمد التميمي، " صحيح ابن حبان"، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (طبعة: مؤسسة الرسالة).

الرازي، محمد بن عمر، "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير"، (طبعة: دار المعارف، الطبعة الثانية)

أبو السعود، محمد بن مصطفى، "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، (دار الكتب العلمية، بيروت).

السمعاني، منصور التميمي، "تفسير السمعاني"، تحقيق ياسر بن غنيم، (دار الوطن، الرياض، ط1، 1997م).

السمين الحلبي، أحمد يوسف، "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ"، تحقيق: محمد باسل، (الناشر: دار الكتب العلمية، ط1)

ابن سيده، علي بن إسماعيل، "المحكم والمحيط الأعظم"، المحقق: عبد الحميد هنداوي، "طبعة دار المأمون".

الشربيني، محمد بن أحمد، "السراج المنير"، تحقيق: محمد قاسم، (طبعة: دار الكتب العلمية).

الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، (مطابع أخبار اليوم، 1997).

الشنقيطي، محمد أمين، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، (دار الفكر، بيروت، ط1995).

الشوكاني، محمد، "فتح القدير"، (الناشر: دار ابن كثير، بيروت، ط1).

الطبري، محمد بن جرير، "جامع البيان في تأويل القرآن"، تحقيق: أحمد شاكر، (مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية).

ابن عاشور، محمد الطاهر، " التحرير والتنوير"، (الدار التونسية للنشر. ط1، 1984م).

الفراهيدي، الخليل بن أحمد، "العين"، المحقق: د. فخر الدين قباوة (الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م).

الفيومي، أحمد بن محمد، "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير"، تحقيق: عبد الرحمن المعلماني، (طبعة دار الكتب العلمية).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر،" تفسير القرآن العظيم"، تحقيق: محمد شمس الدين، (الطبعة الأولى: دار الكتب العلمية).

ابن القيم، محمد الدمشقي، "التفسير القيم"، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث، (دار مكتبة الهلال بيروت ط1).

مسلم، مسلم القشيري،" الجامع الصحيح"، تحقيق: محمد فؤاد. (دار إحياء التراث العربي).

الواحدي، علي أحمد، "التفسير البسيط"، (جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 1430هـ).

References

Abū al-Suʿūd, Muḥammad ibn Muṣṭafā. *Irshād al-ʿAql al-Salīm ilā Mazāyā al-Kitāb al-Karīm (The Guidance of the Sound Mind to the Virtues of the Noble Book).* Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

al-Ālūsī, Shihāb al-Dīn Maḥmūd. *Rūḥ al-Maʿānī fī Tafsīr al-Qurʾān al-ʿAẓīm wa-l-Sabʿ al-Mathānī (The Spirit of Meanings in the Exegesis of the Great Qur'an and the Seven Oft-Repeated Verses).* Edited by ʿAlī ʿAṭiyya. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

al-Baghawī, Ḥusayn ibn Masʿūd. *Maʿālim al-Tanzīl (The Landmarks of Revelation).* Edited by Muḥammad ʿAbd al-ʿAzīz. Beirut: Iḥyāʾ al-Turāth.

al-Biqāʿī, Ibrāhīm ibn ʿUmar. *Naẓm al-Durar fī Tanāsub al-Āyāt wa-l-Suwar (The Arrangement of Pearls on the Harmony of Verses and Chapters).* Edited by ʿAbd al-Razzāq Ghālib. 2nd ed. Cairo: Dār al-Kitāb al-Islāmī.

al-Farāhīdī, al-Khalīl ibn Aḥmad. *al-ʿAyn (The Source).* Edited by Fakhr al-Dīn Qabāwa. 5th ed. 1416 AH / 1995 CE.

al-Fayūmī, Aḥmad ibn Muḥammad. *al-Miṣbāḥ al-Munīr fī Gharīb al-Sharḥ al-Kabīr (The Illuminating Lamp on the Rare Words of the Great Commentary).* Edited by ʿAbd al-Raḥmān al-Muʿallimānī. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

al-Jaṣṣāṣ, Aḥmad ibn ʿAlī. *Aḥkām al-Qurʾān (The Legal Rulings of the Qur'an).* Edited by ʿAbd al-Salām Muḥammad. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya, 1994.

al-Rāzī, Muḥammad ibn ʿUmar. *Mafātīḥ al-Ghayb aw al-Tafsīr al-Kabīr (The Keys to the Unseen or The Great Commentary).* 2nd ed. Cairo: Dār al-Maʿārif.

al-Samʿānī, Manṣūr al-Tamīmī. *Tafsīr al-Samʿānī (The Exegesis of al-Samʿānī).* Edited by Yāsir ibn Ghunaym. 1st ed. Riyadh: Dār al-Waṭan, 1997.

al-Samīn al-Ḥalabī, Aḥmad Yūsuf. *ʿUmdat al-Ḥuffāẓ fī Tafsīr Ashraf al-Alfāẓ (The Mainstay of the Guardians in Explaining the Noblest Words).* Edited by Muḥammad Bāsil. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

al-Shaʿrāwī, Muḥammad Mutawallī. *Tafsīr al-Shaʿrāwī (The Commentary of al-Shaʿrāwī).* Cairo: Maṭābiʿ Akhbār al-Yawm, 1997.

al-Sharbinī, Muḥammad ibn Aḥmad. *al-Sirāj al-Munīr (The Illuminating Lamp).* Edited by Muḥammad Qāsim. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

al-Shawkānī, Muḥammad. *Fatḥ al-Qadīr (The Comprehensive Commentary).* 1st ed. Beirut: Dār Ibn Kathīr.

al-Shinqīṭī, Muḥammad Amīn. *Aḍwāʾ al-Bayān fī Īḍāḥ al-Qurʾān bi-l-Qurʾān (The Lights of Elucidation: Clarifying the Qur'an through the Qur'an).* Beirut: Dār al-Fikr, 1995.

al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. *Jāmiʿ al-Bayān fī Taʾwīl al-Qurʾān (The Comprehensive Explanation of Qur'anic Interpretation).* Edited by Aḥmad Shākir. 2nd ed. Beirut: Muʾassasat al-Risāla.

al-Thaʿlabī, Aḥmad ibn Muḥammad. *al-Kashf wa-l-Bayān ʿan Tafsīr al-Qurʾān (The Unveiling and Elucidation of the Qur'anic Commentary).* Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

al-Wāḥidī, ʿAlī Aḥmad. *al-Tafsīr al-Basīṭ (The Simple Commentary).* 1st ed. Riyadh: Jāmiʿat al-Imām Muḥammad ibn Saʿūd, 1430 AH.

Festinger, Leon. "A Theory of Social Comparison Processes." *Human Relations* 7, no. 2 (1954): 117–140.

Gavin, Gavin de Becker. *The Gift of Fear.* New York: G. P. Putnam's Sons, 1979.

Ibn al-Qayyim, Muḥammad al-Dimashqī. *al-Tafsīr al-Qayyim (The Valuable Exegesis).* Edited by Maktab al-Dirāsāt wa-l-Buḥūth. 1st ed. Beirut: Dār Maktabat al-Hilāl.

Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. *al-Taḥrīr wa-l-Tanwīr (The Liberation and Enlightenment).* 1st ed. Tunis: al-Dār al-Tūnisiyya li-l-Nashr, 1984.

Ibn Ḥibbān, Muḥammad al-Tamīmī. *Ṣaḥīḥ Ibn Ḥibbān (The Authentic Collection of Ibn Ḥibbān).* Edited by Shuʿayb al-Arnaʾūṭ. Beirut: Muʾassasat al-Risāla.

Ibn Kathīr, Ismāʿīl ibn ʿUmar. *Tafsīr al-Qurʾān al-ʿAẓīm (The Great Exegesis of the Qur'an).* Edited by Muḥammad Shams al-Dīn. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya.

Ibn Sīda, ʿAlī ibn Ismāʿīl. *al-Muḥkam wa-l-Muḥīṭ al-Aʿẓam (The Definitive and the Great Comprehensive Lexicon).* Edited by ʿAbd al-Ḥamīd Hindāwī. Beirut: Dār al-Maʾmūn.

Muslim, Muslim al-Qushayrī. *al-Jāmiʿ al-Ṣaḥīḥ (The Authentic Collection).* Edited by Muḥammad Fuʾād. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.

Walker, Matthew. *Why We Sleep: Unlocking the Power of Sleep and Dreams.* New York: Simon & Schuster, 2017.

Web Sources

Majed Blog. "مدونة ماجد." February 2015. https://majed2011.blogspot.com/2015/02/blog-post.html